أثر التغيرات الاجتماعية في بناء اللغة

م.م. بشير داود سلمان
مركز دراسات وبحوث الوطن العربي

المقدمة

لقد بذل علماؤنا جهوداً مضنية في دراسة اللغات والكشف عن اسرارها وعن قوانينها وسمات كل لغة منها.

فلم يهملوا لا من قريب ولا بعيد أي شيء يتعلق باللغات، ومع كل هذه الجهود المتواصلة على قدم وساق لا يزال علم اللغة يشغل بال كثير من الدارسين ذلك ان الكثير من مسائل اللغة على دقتها وصغر حجمها لم تزل تحتاج الى دراسة فاحصة ودقيقة، والى نظرة متأملةٍ.

ومن المسائل المهمة التي لا تزال تشغل بال الدارسين كما قلنا، قضية تطور اللغات وارتباط هذا التغير الذي يحصل للغة مع التطور والتحول الذي يحصل في المجتمعات، وبما ان اللغة الواحدة من مكونات المجتمع فإن التغيرات التي تطرأ على المجتمع او ما يحيط بالمجتمع، تمس اللغة، وهذه القضية المهمة لم يدعها علماً وان القدماء بل اهتموا بها كل الاهتمام وألقوا فيها ابحاث وكتب لا تزال موجودة الى وقتنا الحاضر.

ولذلك فقد جاء هذا البحث المختصر ليبين اهم التغيرات التي تحصل للغة عند تغير المجتمعات وما يطرأ على لمجتمعات فإن للغة منه نصيب وان كان قليلاً لا يشمل كل اجزاء اللغة ومكوناتها.

وبعد الدراسة والبحث وجد الباحث ان مواضع التغير التي يمكن ان تصيب اللغة عند تغير المجتمعات تكمن في موضعين مهمين هما: الاصوات، والدلالة.

وأن ما عدا هذين الموضعين فإن اللغة لم تتعرض للتغير ولا للتبدل فهي لا تزال تحافظ على ما كانت عليه عند نشأتها في قوانينها وانظمتها واقيستها، ولم يكن للبيئة ولا للظروف الاجتماعية اثر يذكر في تغير اللغة إلا في هذين الموضعين.

علاقة التغيرات الاجتماعية في تكوين اللغة

لقد أدرك علماؤنا القدماء منذ البداية أن اللغة هي وسيلة المجتمعات التي يستطيعون من خلالها التعبير والتواصل. وما دامت هذه اللغة وسيلة، فإن لها القدرة الكبيرة على ان تحدث وتولد وتخترع ألفاظاً قد تصبح فيما بعد جزءاً من كيان هذه اللغة العامة.

وبتعبير آخر إن آي اختراع للألفاظ او التراكيب سواء كان هذا الاختراع من فردٍ او جماعةٍ يعد مولداً لذلك اللفظ او التراكيب ويكون له وظيفته في كيان اللغة، وحين يتداول هذا اللفظ او التركيب، تخضعه اللغة لقوانينها وقياساتها وأصولها، فيكون كسائر مفردات اللغة الآخرى[1].

إلا ان القضية لم تقف عند اللغويين على ما يخترع من الألفاظ والمفردات في كيان اللغة نفسها، بل تجاوزها ابو عبيدة معمر بن المثنى حين عدَّ كل ما يدخل من الغريب والاعجمي فتعربه اللغة وتخضعه لأقيستها وقوانينها فإنه من اللغة نفسها، لذلك تنقطع صلته باللغة التي نقل منها الى اللغة التي نقل اليها[2].

واختلاف المفردات في العربية من المعاني نفسها، وآشتهار أكثر من مفردة للدلالة على معنى من المعاني، فإن ذلك راجع الى طبيعة التي تتألف معها القبائل العربية، فالعربية لغة ذات لهجات كثيرة، ولغة تتحدث بها عدة قبائل منتشرة في ارجاء المعمورة، فتداخل اللهجات فيما بينها ساعد على اشتراك القبائل في النطق بمفردات متشابهة لمعاني مختلفة، ولهذا قال ابن جني للعربي الذي تجتمع في لغته لفظتان لمعنى واحد: (إن اخلف الامر به ان تكون قبيلة تواضعت في ذلك المعنى على تينك اللفظتين لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في اوزان أشعارها وسعة تصرف أقوالها)[3].

هذا هو رأي ابن جني ونعلم ذلك من خلال تقريره أن التداوي في مفردات اللغة مرده الى التواضع في البيئة اللغوية الواحدة بغية التوسع وتنمية اللغة[4].

من هذا نعرف ان التكاثر والاتساع والتوليد هي من خصائص اللغة الحية، وهذا الاتساع والتوليد لا يهدم بناء اللغة ولا يؤثر في كيانها بل يغني مفرداتها. ولهذا فقد لاحظ المستشرقون وغيرهم هذه المزية في اللغة العربية وقرروا أنها ذات شخصية محافظة متميزة عن آخواتها الجزريات، ولعل السبب في حصولها على هذه المزية انها كانت منذ البداية بعيدة عن الشعوب الاعجمية وامتفائها على قدراتها الذاتية.

وكذلك قدرتها على الانتقاء والتخير في بيئة واحدة وموطن بعيد عن الاختلاط، أما اخواتها من اللغات الاخرى فقد كانت ذوات شخصيات ضعيفة لا تقوى امام تأثير اللغات الاخرى، مع ان هذه اللغات كانت تعيش في موطن اللغات الجزرية وإن كانت متباعدة عن بعضها، كالكنعانية والآشورية والبابلية[5].

وقد مرت اللغة العربية منذ تأريخها الطويل بشيءٍ من التغير والتطور على ان هذا التطور يكاد يكون ضئيلاً وغير واضح الخصائص والسمات ولا متميز بصفة تشخصه وتظهره، وذلك لأن الظواهر اللغوية لأية لغة من لا تسير على وفق إرادة فرد، او افراد او جماعات ولا تبعاً لمصادفات او ميول وأهواء، بل تسير على وفق قوانين ثابتة ودقيقة ومطردة غير قابلة للتغير والتبدل.

واللغة العربية عبر تاريخها الطويل واكبت تحولات اجتماعية واقتصادية ابتداءً من العصر الجاهلي ثم الاسلامي ثم العصور التي تلت العصر الاسلامي والتي بلغت ما يقارب اربعة عشر قرناً، إلا ان هذه التحولات الكثير لم تحدث تغييراً واضح المعالم على اللغة العربية، أي لم يصب جوهرها وبناءها العام ذلك التغير الملحوظ، فالفعل والفاعل والمنصوبات والمجرورات والمرفوعات واقسام الكلام وآجزاؤه، كل ذلك لم يمسه شيءّ من التغيير، منذ ان عُرفت اللغة الى يومنا هذا، وما زلنا لقول اليوم ما قاله العربي الأول (جاء زيدٌ وذهب بكرُ)[6].

مواضع التغير

اولاً:- الدلالة في اللسان الفصيح

لم تكن نسبة التغير في موضوع الدلالة وتطورها بالنسبة الكبيرة التي يمكن ملاحظتها إنما هذه التطورات بنسبة قليلة وضئيلة لأنه يمتد الى بضعة الفاظ من حيث تطور دلالتها او خروجها الى معان جديدة او قريبة من الأصل، كما يمتد الى بضعة حروف من حيث التبدلات الصوتية.

وقد يكون هذا التغير الدلالي في لغة اكثر منه في لغة اخرى، وذلك لحيوية تلك اللغة ومدى تقبلها او رفضها لما يطرأ عليها من تغيرات في في اغلبها تغيرات اجتماعية او تغيرات في ذات اللغة، كأن يتغير المدلول وهيئاته مع بقاء الصلة بينه وبين المدلول الأول في أصل الوضع، فلفظ (السيارة) في أصل وضعه يدل على القوم السائرين، وفي معجمات اللغة (رجل سيار، وقوم

سيارة، وساروا من بلد الى بلد...)[7] ومنه قوله تعالى: ((يلتقطه بعض السيارة))[8]، أما في العصر الحديث فقد خرج هذا اللفظ الى مدلول جديد بعدان وُجدت الآلة (السيارة)، والصلة بين هذه الآله الحديثة وإطلاق لفظ السيارة على الجماعة السائرين، هو دلالة الفعل (سار) ووجه الشبه بين القوم السائرين والآله السارة هو (السير).

ولعل من ابرز عوامل الدلالة هو الاستعمالات المجازية والاستعارية لمفردات اللغة فالمعنى الاصلي قد يخرج الى معنى مستعار جديد او فكرة او صورة أدبية، يدخل اللفظ في تكوينها ويتطلب منه استخدامه في غير ما وضع له من معنى[9].

وهذا النوع من الألفاظ المتغيرة الدلالات يظهر واضحاً، يدركه الباحث بيسر، وإن كان قليل الأثر في اللغات البشرية بصورة عامة.

والألفاظ التي انتقلت من دلالاتها اللغوية الخالصة الى دلالة جديدة اصطلاحية عن طريق التوسع، او الاستعارة والمجاز، لوجود قرائن تربط بين مدلول اللفظ في أصل وضعه، ومدلوله في ما آل اليه، يمكن معرفتها والكشف عنها، لأن تاريخ اللغة بين ماضيها وحاضرها مرتبط ببعضه، وتراث اللغة كائن بين يدي الدارسين ييسر لهم المقارنة للتميز بين الحقيقي والمجازي والأصيل والدخيل[10].

كما ان دخول الفاظ جديدة للتشريع الاسلامي جاءت على هذا النمط من التغيير الدلالي لتقوي من رصيد اللغة ومن أمثال تلك الالفاظ الاسلامية (الصلاة والزكاة والايمان والعقيدة والدعوة والصدقة ولسنة والفرض والجهاد والصوم، والحديث والنافلة والاسلام)[11]،وكذلك لحاجة المجتمع الاسلامي الجديد لهذه الالفاظ، وقد وجد المشرع اتساعاً في هذه اللغة، وآنصياعاً ميسوراً في تطوير الدلالات واستخدام الألفاظ في صيغ جديدة، بحيث انتقلت بعض الالفاظ من دلالتها المادية الى دلالة معنوية، ومن دلالة حسية الى دلالة ذهنية مجردة، مع بقاء العلاقة بين الموضعين، تبعاً للتطور الذي حصل للعقل العربي، وانفتاحه على حياة جديدة لم يتعود عليها في صحرائه القاحلة.

لذلك يمكن القول بأن كثيراً من المفردات اكتسبت دلالة جديدة بعد أن كانت تستعمل بدلالة خاصة بها. ومن أمثلة ذلك لفظة (بهيم) وهي تأتي عادة –صفة للون– فيقال: (لون بهيم) وهو اللون الذي لا يخالطه لون آخر، ولذلك قيل: ليل بهيم، أي: لا شبه فيه من لون آخر، ولكن

بمرور الوقت اكتسبت هذه اللفظة دلالة اللون الاسود دون غيره من الألوان، والسبب في ذلك انها أستخدمت صفة ملازمة لليل الاسود [12].

والكلام عن تغير الدلالات كلام طويل، ومتعدد الجوانب يتصل بعضه بقضايا نفسية، وبعضه بعلل اجتماعية وبعضه الآخر بتطورات في حياة الأمة في تاريخها الطويل.

ومن أهم الاسباب التي أدت الى توليد معانٍ جديدة للألفاظ هي الاستعارة بكل طرقها، والمجاز المرسل، ومن امثلة ذلك قولهم: البشرة لجلد الانسان ولكن هذه اللفظة بمرور الوقت أنتقل مدلولها الى معنى جديد وهو النبات في قولهم: بشرة الارض أي نباتها[13]، والعلاقة بين المعنيين هي علاقة المشابهة فهو من باب الاستعارة، أما من امثلة المجاز المرسل قولهم: ساق الرجل الى المرأة مهرها، ويعنون بالمهر الحيوان الذي يساق الى المرأة عند لزواج، غير ان العرف الاجتماعي والتقاليد العربية تغيرت بتغير الحياة، وسلوك المجتمع وحضاراته، فاصبح المهر نقوداً تعطى للمرأة[14].

ويجب معرفة ان هذه الالفاظ التي تغيرت دلالتها لا يمكن ان تكون وليدة عصر من العصور، ولا فترة من الفترات، بل انها واكبت تحولات اجتماعية في غضون تاريخ طويل، وظروف حضارية متعاقبة مرت بها الأمة فتركت آثارها على اللغة، ولا غرابة اذا ما عرفنا أن اللغة هي الوعاء الذي يحفظ كل ما تخلفه الأمة من تراث فكري وثقافي وحضاري[15].

غير ان هذه التغيرات التي احتفظ تاريخ اللغة بصور منها في غضون حياة العربي، كانت تشكل جانباً من لهجات بعض القبائل العربية التي كانت منتشرة في أرجاء الاراضي العربية كالكشكشة، والعنعته، والفحفحة والكسكسة وغيرها من الظواهر اللغوية، والتي لا تمثل البناء الرئيس لهذه اللغة، ولا أصواتها التي استقرت عليها في اللسان الفصيح الذي انتقل إلينا في الشعر العربي الجاهلي ولغة القرآن والكريم وحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكلام العرب والصحابة والفصحاء على مدى التاريخ الطويل، هذا المد المتلاطم من النصوص الفصيحة جعل العالم والجاهل يدركان حقاً اين تكمن الفصاحة واين يكون اللحن[16].

ثانياً:- التغير في الأصوات

إذا كانت الأصوات التي نقلت إلينا عن طريق كتب تاريخ اللغة تدل على شيء معين فإنها تدل على قدرة اللسان العربي على النطق بمجهرة الاصوات الانسانية في جميع اللغات، ولعل قول فندريس: (إن النظام الصوتي بعيد كل البعد من أن يكون ثابتاً طوال تطور لغة من اللغات). قولُ صحيح الى حدٍ ما ذلك ان هذه الاصوات التي تركتها العربية خلال حياتها كانت تمثل طوراً من أطوار تغير الأصوات وتبدلها حتى استقرت أخيراً على هذه الاصوات التسعة والعشرين في اللسان الفصيح، ومع ذلك فإن هذا المتروك من أصوات العربية الفصيحة كان يمثل لهجات عديدة عند اللغويين مذمومة خارجة عن العربية الفصيحة، فلم تكن عامة في قوانين أصوات العربية ونظامها.

ومن خلال ما قدمناه يمكن ان نقول ان أصوات العربية الفصحى حافظت على اصالتها وثبتت على ما كانت عليه عند العرب قبل الاسلام وبعد الاسلام، مع ان المجتمع العربي المتحول من مجتمع القبيلة والقيم الجاهلية الى قيم جديدة ذات مُثل عليا أكدها وشرعها الاسلام شملت كل نواحي الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية[18].

إذن لم تغير هذه التحولات الاجتماعية التي مرّت بالامة من النظام الصوتي شيئاً يذكر، وإن وُجد هذا التغير فهو مقصور على افراد من الحركة الاسلامية، في ظروف خاصة كما نقل ذلك على أبي الاسود الدؤلي ت 67هـ حين سمع أحدهم وهو لا يفرق بين صوتي (الضاد والظاء) فقوم لسانه، وعزى أبو الاسود الدؤلي سبب وجود هذه التبدلات الصوتية الى غير العرب ممن دخلوا الاسلام حديثاً فقال: (إني ارى العرب خالطت هذه الاعاجم، وفسدت السنتها)[19].

وعند تتبع لغة العرب منذ البداية يلاحظ ان الصوت الذي حصل فيه تغير ملموس هو صوت (الضاد) والسبب في ذلك هو الاختلاط الاجتماعي بين العرب وغيرهم ممن دخلوا من الأمم الاسلام.

لذلك التفت العلماء القدماء الى هذا التغير الملحوظ في هذا الصوت، فألف فيه العلماء كتباً ليميزوا فيها بين الظاء والضاد[20].

ولتأكيد أئمة العربية على حروف خمسة من بين حروف العربية وهي الظاء والضاد والسين والصاد والذال دليل على ان هذه الحروف كانت عرضة للتغيرات، والمتأمل في هذه الحروف يجدها حقاً من الحروف التي يصعب نطقها او لفظها على الوجه الصحيح لغير العربي.

فالذال ينطقونها (زاياً) والصاد ينطقونها (سيناً) والثاء (سيناً) وهكذا، ولذلك نقل لنا الزمخشري ت 538هـ في كتابه أساس البلاغة: أن أهل بغداد يقولون (الذقن): الدقن بالدال كما ينطقها المصريون اليوم[21].

ويمكن القول بأن هذه التغيرات التي حصلت للأصوات عبر القرون الطويل من تاريخ العربية هي مما وقع بأثر السنة غير عربية في اللسان العربي، وهي مقصورة على اللسان العامي بعيدة عن الفصيح، إذا ما شاء أن ينطق الحرف كما ورثه عن أجداده ولو أراد ان يتكلم اللغة الفصحى، فأن نطق بهذه الحروف وغيرها لا يختلف عن الاعرابي الفصيح في الجاهلية والاسلام[22].

ومن الجهل ان يرجع الدكتور صبحي الصالح سبب ثبات أصوات العربية في لسان المتكلمين بها في مختلف العصور الى القرآن الكريم فيقول: (القرآن الكريم، بآيجاب ترتيله على نحو خاص، كان السبب لجوهري في احتفاظ لغتنا بأصواتها ثابتة، وبأنسابها صريحة، وبحروفها واضحة)[23].

في حين أن المتتبع يلاحظ ان التغيرات الصوتية في اللغات غير العربية امر طبيعي وهو شائع ومعروف[24].

الخاتمة

يمكننا ان نستخلص أنه لا علاقة بين التغيرات التي تطرأ على المجتمعات، والبناء اللغوي لتلك المجتمعات، إذ أن اللغة ليست بناءاً ظاهراً تتحكم فيه التغيرات الاجتماعية والفكرية والثقافية، بل ان اللغة الحية تكون قادرة في ذاتها على الاتساع والنحت والاشتقاق والتوليد في مفرداتها، واذا كان ثمة من التغيرات التي تطرأ عليها بتغير ظروف المجتمع واتجاهاته الفكرية والثقافية والسياسية، فموقعه في استحداث مفردات او الاتساع في الدلالة او الخروج الى المجاز والاصطلاح، وذلك كله ميدانه اللفظ لا التركيب والنظام.

وإذا كان ثمة آخر يمكن ان يتغير بتغير ظروف المجتمع وإن كان قليلاً في حياة الفرد. فبعض اصواتها، ومع أن ذلك واضح في غير العربية فإن أصوات العربية تكاد تكون واحدة على مر العصور الطويلة التي عاشتها هذه اللغة ولعل مرد ذلك الى احتفاظ العربية بأصولها الاولى في نصوص ووثائق امتدت في عهد فحولة اللغة في الجاهلية، فتمثلة في الشعر والخطب والسجع والامثال. الى عهد اتساعها وانتشارها وسيطرتها على اكثر اللغات، تبعاً لانتشار المجتمع واتساعه في العصور الإسلامية فتمثل في القرآن والحديث والشعر والخطابه والامثال، والمؤلفات العامة والمعجمات على اختلاف مدارسها ومناهجها وموضوعاتها.

إذن فالعربية التي عرفها العالم ببنائها الشامخ وبأساليبها الفصيحة المتينة وبأصواتها الثابتة الرصينة، وبأنسابها الصريحة لم تزل راسخة أصيلة يتحدث بها الفصيح –اليوم– كما كان يتحدث الفصيح الجاهلي او الاسلامي ويدرك بلاغة عباراتها، أساليبها كما كان يدركها الأقدمون، ويستغرب لخطأها النحويون العارفون بقوانينها كما كان يستغرب الأقدمون، ويرد لحن اللاحن اليوم كما كان يرد اللحن في العصور المتقدمة فيها واحدة في كل العصور وستبقى واحدة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الهوامش

1. ينظر: دلالة الألفاظ د. مراد كامل ص7.
2. مقدمة المعرب للجواليقي.
3. الخصائص 377/1.
4. ينظر: مباحث في علم اللغة واللسانيات 281.
5. مباحث في علم اللغة واللسانيات 282.
6. المصدر نفسه 283.
7. الاساس للزمخشري 472.
8. سورة يوسف الآية 10.
9. مباحث في علم اللغة واللسانيات 286.
10. المصدر نفسه 288.
11. ينظر: الفطور اللغوي التاريخي ص50، ومجلة الحضارة الاسلامية ص171.
12. ينظر: الاساس 646.
13. المنجد، 39.
14. مباحث في علم اللغة واللسانيات 289.
15. ينظر: لحن العامة والتطور اللغوي ص42.
16. ينظر: مباحث في علم اللغة واللسانيات 294.
17. اللغة: فندريس 64.
18. ينظر: مباحث في علم اللغة واللسانيات 294.
19. معجم ياقوت الحموي 280/4.
20. ينظر: فهرست أبي بكر بن خير 363.
21. فقه اللغة، صبحي الصالح ص386، وفقه اللغة، المبارك 38.
22. دراسات، الصالح 386.
23. المصدر نفسه.
24. المصدر نفسه 287.

المصادر

- القرآن الكريم
- أساس البلاغة، ابو القاسم الزمخشري ت (538هـ) ط القاهرة، الشعب 1314هـ.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني ت (392هـ) تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية 1952م.
- الصاحبي في فقه اللغة ابن فارس ت (395هـ) تحقيق السيد احمد صقر –طه البابي الحلبي– القاهرة، وطه المؤيد 1328هـ.
- فقه اللغة وخصائص العربية –محمد لمبارك– بيروت 1975.
- فهرسة ابي بكر بن خير ت 575هـ ط 1893م سرقسطة.
- لحن العامة، ابو بكر الزبيدي ت 379هـ ط القاهرة.
- اللغة فندريس ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة 1982.
- مباحث في علم اللغة واللسانيات، د. رشيد العبيدي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط$_1$، بغداد، 2002.
- مجلة الحضارة الاسلامية، العدد الخامس 1419هـ 1998م.
- دراسات في فقه اللغة صبحي لصالح، دار لعلم للملايين، بيروت، ط$_{10}$، 1983.
- معجم الادباء، ياقوت الحموي، ت 626هـ، ط مرجليوت– مصر.
- التطور اللغوي التاريخي، د. ابراهيم السامرائي، ط$_2$، 1401هـ، بيروت، دار الاندلس.